٣٥

سيرة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي

الشيخ القاضي: حمود بن عبد الله الراشدي
قاض بالمحكمة العليا
سلطنة عُمان

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا ونبينا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالسيرة الذاتية للائمة والعلماء منذ ولادتهم وإلى آخر أيام حياتهم لا يستطيع أن يحيط بها إنسان، مهما كان ملازما له ومتفرغا للدراسة عليه، وخصوصا إذا كان هذا الإمام هو شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي، الذي عاش ما يقرب من ٧٤ عاما، حافلة بالعطاء والخير، حيث ولد على أغلب الأخبار سنة ١٢٩٩هـ، وتوفي يوم ٢٩ شعبان ١٣٧٣هـ.

لقد كانت حياته مثالاً يحتذى به، فهو الطفل النبيه الذي تلقى تعليمه الأول في أفضل مدرسة، وهي الأسرة التي احتضنته بعطفها ورعايتها. ثمَّ لما كبر رحل إلى شرقيَّة عُمان وتعلم في مصنع الرجال ومعهد العلماء: مدرسة الإمام نور الدين السالمي. ولما اشتد عوده تولى قيادة جماعته؛ فكان المصلح بين الخصوم، وكان القائد إذا تطلبت الأمور الشدة والحزم.

وأخلص الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي لشيخه الإمام نور الدين السالمي في إقامة الإمامة ومبايعة الإمام سالم بن راشد الخروصي، كما أخلص لزميله وإمامه سالم بن راشد الخروصي فكان له عونًا وساعدًا في إقامة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبعد توليه مقاليد الإمامة كان هو الكهف الذي يلجأ إليه كل من عاش في عهده الزاهر، وشهد له القريب والبعيد، والعدو والحبيب.

وهذه السيرة الذاتية للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي نقسمها إلى قسمين:

القسم الأول: الفترة من مولده وحتى مبايعته بالإمامة سنة ١٣٣٨هـ.

القسم الثاني: منذ اليوم الأول من إمامته وإلى وفاته.

القسم الأول: من مولده وحتى مبايعته بالإمامة سنة ١٣٣٨هـ:

نتناول في هذا القسم مولده ونسبه ونشأته وتعليمه الأوَّل، ورحلته إلى القابل لتعلُّمه على يد أشياخه، وتعريف بعائلته الكريمة والأمور والمهام التي كُلِّف بها قبل مبايعته بالإمامة.

مولد الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:

ولد شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي في محلة سحراء بمدينة سمائل. ويقال: إن مولده في سنة ١٢٩٩ للهجرة، ومحلة سحراء هي مكان سكن أجداده لأمه حيث إن أمه من قبيلة آل سعد.

نسب الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:

شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي مستغن عن التعريف، يصدق عليه قول الشاعر:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى نـورًا ومـن فلق الصباح عمـودًا

يرجع نسب الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى عائلة عريقة لها مكانة علمية وأدبية، فهو العلاَّمة محمَّد بن الشيخ العلاَّمة عبد الله بن الشيخ المحقق سعيد بن خلفان الخليلي. ومن أجداده الإمام الخليل بن العلاَّمة شاذان بن الإمام الصلت بن مالك الخروصي. وقبيلة بني خروص إحدى القبائل القحطانية. والكثير من آبائه وأجداده ممَّن تقلدوا مناصب في الحكومات السابقة.

وأمَّا أمُّه فهي: شيخه بنت ناصر بن عبد الله السعدي، حيث إن جده الشيخ ناصر بن عبد الله السعدي، وخاله الشيخ خلفان بن ناصر السعدي عرفا بالعلم والكرم، يقول فيه الشيخ محمَّد بن عيسى الحارثي:

وقـد تلقَّـانـا الإمـــام الـعـادل وفضـلـه علـى الـرعـايـا شامل

أبـــو خـلـيـل الـــولـيُّ الـعـالـم ... بـــه أنـــــارت لـلـهـدى مـعـالـم
والـشـيـخ خـلـفـان تـرقَّـى رتـبـا ... خـال الإمـام الشهم تـاج الأدبـا

نشأة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وتعلُّمه الأوَّل:

نشأ شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي في حجر أبيه الشيخ العلاَّمة عبد الله بن سعيد الخليلي بعلاية سمائل، ثمَّ انتقل إلى وادي محرم، وعاش في الوادي حتَّى بويع بالإمامة. وكانت نشأته نشأة رجال منذ صغره، وكان والده يكلفه بإدارة الكثير من الأمور العظام. كما أن عمه العلاَّمة الشيخ أحمد بن سعيد الخليلي له أثر في حياة الإمام، حيث تلقى مبادئ العلم على يد والده وعمه العلاَّمة أحمد بن سعيد الخليلي، فقد قرأ عليه مبادئ علوم اللغة والفقه والحديث وغيرها.

رحلة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى القابل للتعلُّم:

رحل شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى القابل لطلب العلم على يد الإمام نور الدين السالمي - رحمة الله عليهم أجمعين. وأقام بالقابل سنوات عدة حيث أخذ من الإمام السالمي علم التفسير والحديث وأصول الفقه، فأصبح - رحمة الله عليه - من كبار علماء عصره ومصره. ومن أبرز تلامذة الإمام نور الدين السالمي بالقابل: الشيخ سعيد بن حمد بن عامر الراشدي (ت: ١٣١٤هـ)، والإمام سالم بن راشد الخروصي (ت: ١٣٣٨هـ)، والشيخ أبو مالك عامر بن خميس المالكي (ت: ١٣٤٦هـ)، والشيخ أبو عبيد حمد بن عبيد السليمي (ت: ١٣٩٠هـ)، والشيخ أبو الوليد سعود بن حميد بن خليفين (ت: ١٣٧٣هـ)، والشيخ سالم بن حمد البراشدي (ت: ١٣٧١هـ)، والشيخان أبو بشير محمَّد (ت: ١٤٠٥هـ) وأبو حميد حمد (ت: ١٣٨٥هـ) اِبنَا الإمام نور الدين السالمي، وغيرهم كثير.

عائلة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:

كان لشيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي أخ واحد، وهو الشيخ علي بن عبد الله بن سعيد خلفان الخليلي، كان أكبر من الإمام سنًّا، وله ثلاثة أولاد: الشيخ هلال بن علي الخليلي، والشيخ عبد الله بن علي الخليلي، والشيخ سعود بن علي الخليلي - أطال الله في عمره . كما كان للإمام أختان اثنتان، تزوَّج الشيخ

محمَّد بن عيسى بن صالح الحارثي الأولى، وأنجبت له أربع بنات وتوفيت، ثمَّ تزوج الثانية، ومن نسلها: الشيخ أحمد بن محمَّد الحارثي. تزوج شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي من ثلاث نساء:

الزوجة الأولى: وهي عائشة بنت سعيد بن عمير الفرعية، وكان والدها رجلا صالحا ورعا من سكان نزوى، وكان زواجه منها قبل أن يعقد عليه الإمامة، وأنجبت له ابنته، وتوفيت وهي في عصمته، حيث توفيت البنت أولا وبعدها الأم.

الزوجة الثانية: وهي فاطمة ابنت العلَّامة أحمد بن سعيد الخليلي، ابنة عمه، كانت في أيام إمامته تسكن في البيت الغربي بالحصن، وهو البيت الكبير، وهو البيت الذي يحضر فيه ضيافة الضيوف والعسكر والطلبة، رزق الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي منها ببنت تزوجها الشيخ أحمد بن حامد الراشدي، وأنجبت له ابنتين – على ما أحسب –.

الزوجة الثالثة: وهي جوخة بنت سيف بن سليمان الرواحية، تزوجها الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي في حياة أبيها الشيخ سيف بن سليمان الرواحي، وكان لها سكن خاص بالحصن في المكان وأنت داخل من الصباح الأول إلى الصباح الثاني تجد بابًا لغرفة مستطيله بها مرفقات، وهو مكان مجهز بما يلزمه من المرفقات وغيرها، وعاشت بعد وفاة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بزمن، وتوفيت في هذا العهد الزاهر.

المهام التي كلف بها قبل مبايعته بالإمامة:

وكان شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي – رحمة الله عليه – حلاَّلاً للمشكلات، يخمد نار الفتن إذا ألتهب سعيرها منذ نعومة أظفاره. ومن ذلك هذه القصة التي تبيِّن الأدوار القيادية التي كان يتقلَّدها قبل توليه الإمامة، حيث إن والده الشيخ عبد الله بن سعيد الخليلي طلب منه أن يقوم بقيادة بني رواحة في الحروب الجاهلية القديمة بينهم وبين الحبوس على سمد الشأن، فوافقه على ذلك، ولكن اشترط الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي شرطًا، وهو أن لا يتدخل والده الشيخ عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي في شأن الحرب ولا في شؤون جماعة بني رواحة، وإن الرأي الأول والأخير له وحده، فوافقه والده على ذلك،

ولما وصل الرجل سمد الشأن كتب لمشايخ الحبوس بأن الرجاء منكم إيقاف الحرب، وخصومكم يعطونكم الشرع الشريف، ولكن الحبوس استخفُّوا بالرجل واستمروا في الحرب ولم يردُّوا عليه، وفي اليوم الثاني أرسل لهم كتابًا آخر، وأعاد لهم نفس النداء، وكذا فعل في اليوم الثالث، وأدرك المشايخ والعقلاء من الحبوس رأي الرجل وحسن نواياه، كما أدركوا الضعف الذي سببته الحرب، وأجمعوا على إيقاف الحرب والنزول إلى الشرع، وهنا أرسلوا للشيخ نور الدين السالمي والشيخ عيسى بن صالح الحارثي ولبى المشايخ طلبهم، واصطلح الحال بينهم، وحقنت الدماء بين الطرفين بوصول المشايخ، رحمة الله عليهم أجمعين. وهنا قال الإمام نور الدين السالمي مقالته المشهورة الخالدة، والتي أثنى فيها على حكمة الرجل وحسن صنيعه: "لو صنع أهل عُمان مثل ما صنع محمَّد ما تقاتلوا ولا سقطت قطرة دم من دمائهم على الأرض".

والقصَّة الثانية التي توضِّح وتبيِّن جوانب تنشئته، والتي أكسبته حبَّ التقارب والجمع بين الخصوم وتوحيد الكلمة وجمع الشمل، أنَّ بعض المشايخ أخبرني أنَّ الشيخ سعيد بن ناصر الكندي جاء إلى الإمام سالم بن راشد الخروصي ليعرض عليه الصلح بينه وبين حكومة مسقط، فصادف بابًا مسدودًا من الإمام سالم بن راشد الخروصي، ومر على الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي في وادي محرم، وأخبره بما جاء به وبرد الإمام سالم الخروصي، وكان الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي يقول للشيخ سعيد بن ناصر الكندي: "ذلك إمامكم"! فغضب الشيخ سعيد بن ناصر الكندي، فقال للشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي: "هل تعرف شيئًا إلاَّ ذلك إمامكم"؟! فأجابه الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي: "إنِّي لا أملك من الأمر شيئًا، والرأي للإمام سالم بن راشد الخروصي". ويفهم من خلال كلام الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي أنَّه ممَّن يرغب في الصلح لما له من تيسير على الناس، لبيع وتصدير سلعهم، وشراء حاجياتهم الأخرى، كما وقع بعد ذلك في زمانه من التوقيع على الاتفاق المعروف - رحمة الله عليهم أجمعين -. وقد كان هو الساعد الأيمن للإمام سالم بن راشد الخروصي، فكم من فتنة أخمدها، وكم خلاف حله وأنهاه، وزالت الأحقاد، واصطلح الحال. وكان - رحمة الله عليه - ناصحًا لله ورسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم.

ومن المواقف التي تبرز شخصيته القيادية الفذة، وتزعمه وقيامه بأصعب المهام في المجتمع العُماني، هذه القصة التي تبين حبه في استقرار أمور البلاد وراحة العباد، والتي جعلته محط أنظار الجميع لتولي الإمامة، حيث أخبرني الوالد سعيد بن حمد الرواحي فقال: كنت بصحبة الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي – قبل توليه الإمامة – في موعد سبق له مع الإمام سالم بن راشد الخروصي، وقد اتفقا على أن يلتقيا في الخضراء صباحَ الغد في البلدة التي استشهد فيها الإمام سالم بن راشد الخروصي، وليجتمعوا معًا بالشيخ عيسى بن صالح الحارثي للنظر في قضايا بين آل وهيبة والعبريين، ومنها القضيَّة التي حملت أبا بسرة على قتل الإمام سالم بن راشد الخروصي، وكان الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي ومَن عنده من أعيان بني رواحة بالعلياء من وادي عندام، والإمام سالم بن راشد الخروصي ومن معه نائمون بالخضراء، وبعد منتصف الليل وصل رسول من راشد بن سالم الراشدي ليخبر الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي، بأن الإمام سالم بن راشد الخروصي أطلق عليه الرصاص، ولكنَّه لم يفارق الحياة، وبينما نحن والشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي في ميدان المشاورة، إذ فريق يفضل تدارك الأمر واللحوق بهم، والفريق الآخر يقول بالتريث إلى ما بعد صلاة الفجر، وفي الربع الأخير من الليل قبيل الفجر فإذا بوصول رسول آخر – وهو هلال بن سعيد الراشدي – ليخبر الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي، بأن روح الإمام سالم بن راشد الخروصي فاضت إلى بارئها، رحمة الله عليهم أجمعين. وأجمعت الجماعة على أن نباشر المسير بعد صلاة الفجر فتحركنا، ولما وصلنا الخضراء وجدنا الناس قد انتهوا من دفن الإمام سالم بن راشد الخروصي، ولامهم الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي على الاستعجال بدفنه، وكان رأيه أن يدفن بنزوى، وهنا قام الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي بإرسال الرسل إلى والي نزوى وغيره من الولاة يأمرهم بالتمسك بما هم عليه، وأن يلزم كل منهم الأمور التي كُلف بها، وإن يبقى الولاة في حصونهم، وأن لا يخرجوا منها حتَّى تستقر الأمور، وكتب إلى الشيخ عيسى بن صالح الحارثي ومن عنده بضرورة الإسراع في تدارك الأمور. وفي أثناء إرسال الرسل إلى رؤساء القبائل وولاة البلدان، قام رجل من بني رواحة، وقال مخاطبًا الناس: "إن إمام المسلمين سالم بن راشد الخروصي قُتل، وكل من له حق فليأخذ حقه"، وقام له الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي فضربه

بالعصا أمام الناس، وقال له: "أتشعل الفتنه بين المسلمين والمسلمون لهم خالق لا يضيعهم؟!". بعد هذا الموقف النبيل الذي وقفه، وقبضته وسيطرته على الأمور حتَّى لا تنحل من يد المسلمين - لأنَّ أصحاب الفتن كُثرٌ في المجتمع، ومنهم هذا الرجل الذي وقف ينادي بدعوته الجاهلية، وهي أن يأخذ كلُّ فرد حقه بنفسه بعد ما ارتاح الناس ونعموا بالأمن في ظل دولة الإمام الخروصي - كانت جميع الأنامل تشير إليه لما رأت فيه من صفات عظيمة، تؤهله لتحمل تلك الأمانة، فتوالت عليه الدعوات والرسائل من الصغير والكبير بأنَّه لا يوجد إنسان يرضى به الجميع، ولا يتنازع عليه اثنان إلاَّ أنت يا أبا الخليل، فقم نبايعك. وبقي يفكر بالأمر أيامًا، والمسلمون مجمعون عليه وعلى بيعته، وذكَّروه بحكم الإمام نور الدين السالمي في الإمام سالم بن راشد الخروصي إن رفض الأمر وأنَّه يكون في البراءة، فقبل الأمر على مضض ودموعه تسيل على وجنتيه، وتبلل لحيته الطاهرة.

القسم الثاني: منذ اليوم الأول من إمامته إلى وفاته:

نتناول في هذا القسم مبايعته بالإمامة ومدرسته المباركة التي خرَّجت الكثير من علماء عُمان وتقديره للقضاة والعلماء، ومكانة طلاب العلم في نفسه ونختمها بوصيته وقصة وفاته:

مبايعة محمَّد بن عبد الله الخليلي بالإمامة:

بايع المسلمون شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي بالإمامة بعد وفاة سلفه الإمام سالم بن راشد الخروصي بعدة أيام. وإليكم هذه القصة التي أخبرني بها الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري، يقول: اجتمع المشايخ، وعلى رأسهم الشيخ القاضي عامر بن خميس المالكي، وكان المجتمعون هم: الشيخ سليمان بن حمير النبهاني، ومشايخ بني هناة، والعبريين، ومشايخ الشرقيَّة، والقضاة والعلماء وغيرهم من المشايخ، اجتمعوا بالإمام محمَّد بن عبد الله بالخليلي وطلبوا منه القيام بالأمر، وذلك في مسجد السنود بنزوى بعد العتمة، فلم يوافقهم في بادئ الأمر على طلبهم، حتَّى ذكروا له حكم شيخه نور الدين السالمي على الإمام سالم بن راشد الخروصي، عندما رفض البيعة في أول أمره: "إن الذي يرفض البيعة والمسلمون مجمعون عليه يحكم عليه بالقتل والبراءة منه". وبعد الحوار

المستمر إلى جانب من الليل، وافقهم على ذلك. يقول الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري: وكنت أنا أصغر الحاضرين، وأرسلوني إلى الحصن لآمر بحشو المدافع لإطلاقها إعلامًا بالإمامة.

وفي الصباح اجتمع المشايخ بجامع نزوى، وتأخر الشيخ محمَّد بن عبد الله الخليلي، وأرسلوني إليه ليحضر عندهم بالجامع، فذهبت ووجدته مع شريعة فلج "ضوت"، ومعه العسكر لحل مشكلة بينهم، وأخبرته بطلب المشايخ له للحضور إلى الجامع، فأجابني قائلاً: ماذا يريدون منَّا؟ فقلت له: إنك وعدتهم بإتمام الأمر، فقام معي، وكنت أسارقه النظر أتقدمه قليلاً، فكانت دموعه تبلل لحيته، ولما وصلنا الجامع بعد تحيتهم له قامت البيعة، وأمر العساكر بإطلاق المدافع.

مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:

كان شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي الأب البرَّ الرحيم بطلبة العلم، يراقبهم في جميع الحالات، سلوكًا وملبسًا وأكلاً وصحة، وقد كان لطلبة العلم معه مواقف من تعامله تبقي في ذاكرة الطالب أثرها، ولاسيما من خلال أسلوبه الليِّن في الحديث معهم. ومن هذه المواقف الرائعة في تعامله وتوجيهه أنَّ لي وللأخ الفاضل يعقوب بن الشيخ سالم بن حمد البراشدي، مواقف:

أورد الموقف الأول من خلال هذه القصة: جئنا للبرزة الصبح، وهو بالبرزة، وبعد السلام ومصافحتنا بيده الكريمة، استدعانا وقال: ما بالكم يا أولاد عيونكم بها حمرة، وكنت قريبًا من صاحبي فأجبته: بأعيننا مرض حبة البهو، وهو معروف مع السلف يصيب العيون، فقال – رحمة الله عليه – هذا المرض يحتاج إلى وسم خفيف في اليدين أسفل أصبع الإبهام، وأرسلَ للمقلي وعلَّم لنا مكان الوسم، وقال بنص العبارة: "محمَّد ما يوسم، فاذهبوا مع أحد الوسامين"، وذهبنا إلى منزل الوالد المرحوم سليمان بن مسلم البرطماني، وكان من مشاهير الوسامين، وبعد ذلك الوسم بأيام ذهب منَّا ذلك المرض، والحمد لله.

والموقف الثاني أورده من خلال هذه القصة، حيث استأذنَّا الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي في الذهاب إلى البلد، وذهبنا لتوديعه بغرفته الخاصَّة، وبعد أن خرجنا عنه نادانا وطلبنا بنفسه شخصيا للعودة إليه مرة أخرى، ولما استقر بنا

الجلوس قال: ستصلون إلى أهليكم ويسألونكم عن القيظ (موسم جني الرطب) في نزوى، هل بدأ؟ وهل تبشرتم (أكلتم شيئا بشارته أي أوله) منه؟ فتقولون: لم نتبشر منه. وقام بنفسه وأحضر لنا مقدار كيلو من الرطب أهدي له، وجعل يختار منه الجيد المستوي، ويناولنا الثانية تلو الأولى ونحن نرده إليه، وهو يرده إلينا، ويبتسم مسلِّيًا لنا عن هيبته، ومؤانسا لنا، رحمة الله عليه.

ولي عنده موقفان آخران أستحضرهما الآن:

قصة الموقف الأول: كان الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي - رحمة الله عليه- خارجًا من الحصن لأداء صلاة العصر، وكنت أنا داخلا للحصن، وقميصي ملطخ بالدم وناداني قائلا: ما لك أمنقحف؟ وحيث أن هذه الكلمة معنا أهل الشرقيَّة معيبة أجبته مسرعًا: "حاشا الله أيها الإمام"، فرد يده إلى فمه وجعل يضحك، ثمَّ قال: أنتم أهل الشرقيَّة تقولون: "مفتلع"، أمَّا نحن أهل وادي سمائل والدَّاخليَّة نقول: "منقحف"، ثمَّ قال: ما سبب هذا الدم؟ والدم مستمر في النزول، قلت الدم من الأنف وهو الرعاف، قال: اذهب إلى معقل الخيل والحمير بالحصن، وخذ من هناك بعرة حمار يابسة وسد بها منخرتك، وإن شاء الله ينقطع الدم. فعلا عملت بإرشاداته وذهب الدم، والحمد لله.

وقصة الموقف الثاني: أنَّه أصابني رمد، واشتد بي الألم، والإخوة المغفور لهم بإذن الله: ناصر بن راشد المحروقي وعبد الله بن سالم اللزامي - رحمة الله عليهم أجمعين- أخبروه بعد مضي أيام عن المرض الذي بي، فلامهم لِمَ لم يخبروه قبل؟ ثمَّ قال لهم: اجلبوا له بعرة حمار رطبة ثمَّ اغسلوها عن التراب واجعلوها في خرقة نظيفة، واعصروها في عيونه، وفعلا فعلوا ذلك مشكورين، وبالحال ذهب الألم وارتفع عني البلاء، وبعد يومين حضرت الجامع مع طلبة العلم، والمنة لله وحده، ثمَّ له غفر الله له وأكرم مثواه.

وهكذا شأنه مع رعايته المرضى من الطلبة. وقد جرى ذلك كما جرى عند ابن أخي الشيخ أبي زيد، ولعلي بن سالم الحميدي وغيرهم من الطلبة الذين مرضوا وقام بهم بنفسه حتَّى شفوا، ولله الحمد.

تقدير الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي للعلماء:

كان شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي مخلصًا للعلم ولأهل العلم، من علماء وقضاة. وهذه القصة حدثت في إحدى زياراته لبلدة سناو، حيث تبيِّن تقديره للعلماء ومكانتهم في نفسه. يقول راوي القصة: كان الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بسناو، وقربه الوالد محمَّد بن حمود الصوافي بمسجد خناتل، فقيل للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي: إنَّ الشيخ أبا الوليد سعود بن حميد بن خليفين ها هو مقبل علينا، فقام ﷺ واقفا، وأبو الوليد كلما مر على الناس استقبلوه وقاموا احترامًا له وصافحوه، والإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي لا يزال واقفا ينتظر وصوله، وطلب منه الجلوس ورفض الجلوس حتَّى وصل أبو الوليد احترامًا للعلم وإكراما للعلماء.

والقصة الثانية تبين تقدير شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي للعلماء: كتب - رحمة الله عليه - كتبًا إلى الشيخ سالم بن محمَّد الحارثي، أن أرسل إليَّ جوابات الشيخ عيسى بن صالح الحارثي لنراجع فيها، ونستفيد منها وليكون للشيخ عيسى بن صالح الحارثي أجر المعلم المرشد، ولنا أجر المتعلم المسترشد. ففي العبارة إشارة إلى رفعة شأن العلماء عنده، وهضم النفس وتواضعه. ومن كلامه ﷺ: "إن الأئمة حكام على الناس، والعلماء حكام على الأئمة".

ومن تربيته لطلبة العلم وتنشئتهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذه القصة. كان الإمام - رحمة الله عليه - لا ينكر الغناء الذي لا يصاحبه آلات ومزامير، ويشدد في موضوع الاختلاط بين الجنسين في المناسبات الاجتماعيَّة، ويأمر الناس بإنكاره والابتعاد عن الوقوع فيه. وفي ليلة من الليالي كنا عنده بعد صلاة العتمة (العشاء الآخرة) سمعنا إطلاق الرصاص وأصوات الغناء، فأمرنا أن نذهب إلى مكان العرس، وكانت عادتهم أن يذهبوا بالمرأة إلى بيت الزوج مشيًا على الأقدام، وأمرنا - رحمة الله عليه - أن ننهاهم عن الاختلاط إذا حصل اختلاط. وذهبت مع إخواني من الطلبة امتثالاً لأمره، ووجدناهم غير مختلطين مكان جلوس الرجال بعيدًا عن مكان جلوس النساء، فلم نتعرض لهم بشيء وعدنا إليه.

أسلوب الإقناع عند الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:

عرف شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي بأسلوبه الإقناعي المتميز، مع الكبير والصغير، مع الذكر والأنثى، ولاسيما في أسلوبه في الكلام، حيث ينزل بنفسه كواحد من الرعية، وليس حاكمًا أو إمامًا، وبأن النظر في أمور المسلمين والقرار لهم في ما يرونه، وهو مجرد واحد منهم. كما أنَّه يبين للناس المحاذير التي يحذرها ويبتعد عنها في أخذه بهذا الرأي دون غيره. ونذكر عددًا من القصص التي تبين أسلوبه الإقناعي:

القصة الأولى: عاتب الشيخُ عيسى بن صالح الحارثي - رحمة الله عليه - الإمامَ محمَّد بن عبد الله الخليلي على كثرة الإنفاق، حيث قال الشيخ عيسى بن صالح الحارثي: "لو مُلئ لكم بيت بالذهب والفضة فلن تتركوا منه شيئًا"، وخرج الشيخ عيسى بن صالح الحارثي وهو غضبان، وبعدها اجتمع الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بالشيخ عيسى بن صالح الحارثي وقال له الإمام: "جربوا املؤوا لنا بيتًا بالذهب والفضة ثمَّ انظروا ماذا نصنع به"، وهنا ضحك الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، واقتنع بردِّ الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، وذهب عنه الغضب.

والقصة الثانية: التي تبين تميزه بأسلوب إقناع رائع وجميل، حيث إن الشيخ ياسر بن حمود المجعلي طلب من الشيخ سليمان بن حمير النبهاني أن يصحبه مع الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي ليطلب منه نقل الشيخ خالد بن هلال الهنائي من منح، حيث كان واليًا عليها، ولما وصلوا عنده، وطلبوا منه نقل الشيخ خالد بن هلال الهنائي، أجابهم أن الأمر للمسلمين، وطلب منهم مهلة ليتشاوروا، ولما عادوا إليه أجابهم: إن المسلمين تشاوروا، وكان رأيهم أن منح لا يصلح لها إلاَّ واحد من ثلاثة: الأول: سليمان بن حمير النبهاني، والثاني: ياسر بن حمود المجعلي، والثالث: خالد بن هلال الهنائي. وهنا اعتزل الشيخ ياسر بن حمود المجعلي وقال: للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي أتجعلون منَّا ولاة؟ كأنه استصغر الوظيفة؛ لأنَّه ماسك زمام المشيخة والرئاسة لجماعته، وأجابه الإمام: إن هذا الأمر للمسلمين وعلى كلٍّ واحد أن يقوم بواجبه، فقال ياسر: من الأفضل أن يبقى الشيخ خالد بن هلال الهنائي في ولايته، وخرجت عنه الجماعة راضين ومقتنعين.

المشورة عند الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي:

كان الإمام إذا طرأ أمر يستلزم المشورة، يجمع القضاة والعلماء، ويستمع لرأي كل منهم ولا يبدي رأيه إلاَّ بعد أن يستمع من الجميع بعدها يبدي رأيه - رحمة الله عليه - ويشير من خلال حديثه، ويثني على الآراء التي سمعها، ويؤيِّد الرأي الأصوب من بقية الآراء، بعد فحص جوانب كل رأي منها، كما يوضح المحذور من كلِّ رأي لم يأخذ به من الآراء التي طرحت. وكان كثير الحذر والحيطة يبتعد عن كل ما يسبب إساءة لأحد أو فتنه قريبة أو بعيدة، ويوصي ولاته وقضاته بتجنب الفتن والإساءة إلى الناس.

وصية إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي:

لكل بداية نهاية، ولكل عمل خاتمة، وخير أعمال ابن آدم خواتيمها. وشيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي يُعدُّ نفسه من أول يوم بلغ فيه الحلم والتكليف لذلك اليوم الموعود؛ ولذلك نراه يحاسب نفسه في كلِّ يوم، بل في كلِّ ثانية، وفي كلِّ مرحلة من مراحل حياته، بداية من ذهابه لطلب العلم حتَّى يعبد الله على بصيرة. كذلك من خلال حرصه على إنهاء العداوات والحروب والخصومات بين المسلمين، ومن خلال رفضه البيعة أول الأمر، ومن خلال إنصافه من نفسه قبل إنصافه من الخصوم، كذلك من خلال مؤشرات وضعها في حياته تخبره باستقامته وعدالته في رعيته، وختمها من خلال هذه الوصيَّة التي نص فيها وبيَّن حقوق كل الناس، سواء من أهله وخدمه، أو من التجار وغيرهم. وجعلها في أيدي ثقات المسلمين لتنفيذها، وإليكم الوصيَّة:

"هذا ما أوصى به إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي، أوصى من ماله بعد موته بما يحتاج إليه من ماله بعد موته من جهاز الموتى إلى أن يدفن في قبره. وأوصى بثلاث قروش فضة لمن يغسله بعد موته غسل الموتى. وأوصى بقرشي فضة لمن يحفر له قبرًا يدفن فيه بعد موته. وأوصى بعشرين قرشًا فضه لأقاربه الذين لا يرثون شيئا من ماله. وأوصى بكفَّارتين للصلاة، كلُّ كفارة منها إطعام ستين مسكينًا، والنظر في الإطعام لنافذ الوصيَّة، وذلك حوطة عمَّا أوصت به أهلهُ بنت أحمد. وأوصى بكفارتين للصلاة، كل كفارة إطعام ستين مسكينًا، حوطة عمَّا أوصت

به ابنته عائشة. وأوصى بإطعام ستين مسكينًا كفارة صلاة عن الخادم زايد بن حمادي. وأوصى بأجرة من يصوم عنه شهرين، بدلاً لما عساه ضيع من صوم شهر رمضان، وبكفارتين مغلظتين للغشور. وأوصى بأن كل من عنده صك فيه..... منه له أو مكتوب عليه فإنَّه دائن بأدائه وموص بأدائه من بيت مال المسلمين، لأني أخرجت ذلك في دولتهم..... وأوصى بأن محمَّد بن سالم السيابي وخميس بن سعيد الإسماعيلي وحارث بن منصور... ... بينه وبينهم معاملات فهم مصدقون عليه فيما يقولون إن لهم عليه حقًّا، وموص بأدائه. وبأنَّه دائن لله بأداء جميع حقوقه، ما علمها وما جهلها. وبأنَّه تائب إلى الله من كلِّ فتوى لم تكن عن علم تقوَّل بها على الله ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٦٩). وأنَّه تائب إلى الله عن كل عمل ولم يخلص (فيه) لله، ومن كل عمل غير صالح وتقرب به إلى الله، ومن كل عمل بينه وبين المخلوقين ولم يكن فيه ضمان مال، كغيبة أو نميمة أو استهانه بالحق وأهله أو توهينه، ومن تعظيم من لا يستحق التعظيم، ومن المداهنة في الدين، ومن الأكل في الدين، ومن كل تقصير منه في الواجبات عليه. وأن دينه دين الإسلام، وملته ملة محمَّد ﷺ. وأنَّه مقر بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمَّدًا رسول الله ﷺ. وأنَّه يتولى من تولاه الله ورسوله والمؤمنون، ويبرأ ممَّن برئ الله منه ورسوله والمؤمنون. وأوصى بـ: ٥٠٠ قرش فضة، حوطة عن حقٍّ لزمهُ ولا يعرفُ ربه، ويرجع حكمها في وجه إخراجها إلى المسلمين. وأوصى بـ: ٥٠٠ قرش فضة مرجعها لدولة المسلمين، حوطة منه أن يكون أخرج شيئًا من بيت مالهم ووضعه في غير موضعه، وأوصى بأن الكتب التي يخلفها هي حبسٌ للمتعلمين، وأن تكون بيد الولد هلال بن علي لا يمنعها عن مستحقها، ولا يضعها في يد غير أهلها. وأخرُ يكون مرجعها إليه إذا استكفى القارئ منها أو مات. وبان الكتب التي هي في بيت الحصن إن عرف أحد المسلمين منها كتابًا أنَّه له بعلامة فمرجعه إليه، وأوصى أن أهله بن سيف بن سليمان إن ادعت شيئًا من الأواني أنَّه لها فهي مصدَّقه في ذلك، وأوصى لها بـ٢٠٠ قرش فضة عن ضمان عليه لها، وأوصى للخادمة رخيوة بن صروخ بـ: ١٠ قروش فضة. وأنَّه جعل أوصيائه في إنفاذ وصيته هذه ثقات المسلمين، وأوصى لمن أنفذها منهم بـ: ٢٠ قرشًا فضة، أجرة الإنفاذ بوجه العدل. شهد الله ورسوله والمؤمنون، وكفى بالله شهيدًا وحسيبًا. وكتبه عن إملائه العبد الضعيف لله: منصور بن ناصر بن محمَّد بن سيف الفارسي بيده، في يوم ٧ من شهر رجب سنة ١٣٧٣".

يقول إمام المسلمين غالب بن علي: إنِّي أثبت هذه الوصيَّة، وجعلت إنفاذها على الشيخ سعود بن علي الخليلي، وكتبه بأمر سفيان بن محمَّد بيده. صحيح كتبه إمام المسلمين غالب بن علي بيده.

ومرض الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي مرض الوفاة زهاء خمسة عشر يومًا، وخلال هذه المدة تتدهور صحته تدريجيًّا، ويضعف حاله. وقبلها اجتمع بالمشايخ أولاد أخيه واستأذنهم بأن يوصي بالباقي من كتبه وقفًا للمتعلمين، وقال لهم بمعنى العبارة - إن لم يكن بنصها -: "إن بيني وبين المنية قاب قوسين، وأنتم ترثونني، وكما تعلمون أنِّي لا أملك شيئا إلاَّ هذه الكتب وأستأذنكم في توقيفها". فأذنوا له مشكورين بذلك. وأخبرني بعض من كان معه في الليلة التي لقي فيها ربه، أنَّه كان من بعد العتمة يرفع يده اليمنى، ويبسط كفَّه، ويحرك شفتيه، ولا يدرون ماذا يقول حتَّى دنا الفجر، فحينئذ لم تساعده يده على الرفع ولم يبق إلاَّ حوالي نصف ساعة قبل الفجر، حتَّى فاضت روحه وانتقل إلى جوار ربه ورضوانه وواسع رحمته.

وكان موته وموت الأشياخ عامر بن خميس المالكي، وعبد الله بن عامر العزري، وسالم بن حمد البراشدي في وقت واحد أواخر الليل، رضي الله عليهم وأرضاهم، إنَّه برٌّ كريم. ولما أخرج نعشه من الحصن والناس يحتسون كأس الأسى والحزن، وأعينهم تذرف دمًا استحضرت قول الشاعر:

ما كنت أحسب قبل موتك أن أرى رضوى على أيدي الرجال يسير

وقول الشاعر:

وأرض نزوى تذرف الدمعَ مقلتُها حزنًا لفقد إمام الدين هاديها

وتم تغسيله في فلج "ضوت"، حيث قام بتغسيله مشايخ العلم والقضاة وأولاد أخيه. وبعد مبايعة الإمام غالب بالإمامة خلفًا له، صلى عليه الإمام غالب بن علي الهنائي، وحُمل بعد ذلك إلى المقبرة وغمائم الرحمة تظلل الجثمان والمشيعين من وهج حرارة الشمس في ذلك اليوم من أيام الصيف شديدة الحرارة. وتم دفنه في مقبرة الأئمة بجنب قبر الإمام الرضي ناصر بن مرشد اليعربي، رحمة الله عليهم أجمعين.

رحم الله إمامنا رحمة واسعة، وجزاه الله عنا وعن الإسلام كل خير، ومات ﷺ والمسلمون عنه راضون، ولفقده جزعون، إنَّا لله وإنا إليه راجعون. وكانت مدة إمامته خمسة وثلاثين سنة تقريبًا.

خاتمة:

هذا العمل مشاركة مني في إحياء ذكرى شيخنا وإمامنا محمَّد بن عبد الله الخليلي، وتسليط الضوء على سيرته العطرة، وحفظ القصص والروايات التي رويتها خوفًا من الضياع والنسيان، وحتَّى يَعتبر الخلف بما كان عليه السلف من تمسكهم بالدين وطلبهم للعلم.